Coptology

عقيدة الخلق

"مجتزأٌ من كتاب الإنسان صورة الله ومثاله"

"قيد الإعداد"

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢١

www.coptology.org

تمهيد

عندما أراد آدم أن يختبئ من وجه الله سمع ذلك السؤال "أين أنت؟" (تكوين ٣: ٩) ومنذ أن قيل هذا السؤال وحتى اليوم، بل وحتى نهاية التاريخ، سوف يسمع الإنسان هذا السؤال، لا سيما في أوقات الأزمات، وعندما يمرُّ بفترةٍ من الشك، يُضيف الإنسان إلى هذا السؤال: "مَن أنا؟"

ولذلك علينا أن نبحث في أصل هذا السؤال "أين أنت؟"، وفي الإضافة الإنسانية الهامة: "مَن أنا؟"، لأن العقائد والديانات كلها مرتبطة بهذا السؤال تحاول أن تجيب عنه.

ولكي نتعرَّف على الإنسان بشكلٍ صحيح، علينا أن ندرس علاقته بالله، وبالذات عقيدة الخلق، لأننا إذا درسنا عقيدة الخلق أمكننا أن ندرك بكل يقين معنى السؤالين السابقين، ومصدرهما في حياة الإنسان نفسه، والأسباب التي تجعله يطرح هذا السؤال على نفسه من وقتٍ لآخر.

الفصل الأول

عقيدة الخلق في العهد القديم

يؤكد الكتاب المقدس أن الله خلق العالم "بكل ما فيه"، ويشرح سفر التكوين قصة الخلق مرتين؛ مرةً بشكلٍ متتابع في الإصحاح الأول، ومرةً بشكلٍ سريع، ويحتل فيه الإنسان المركز. ولذلك تتعرض القصة الثانية في تكوين ص ٢ إلى خلق الإنسان بشكل تفصيلي.

وفي القصة الأولى علينا أن ندرك أن مفتاح الوصف المتتابع هو في أول كلمات (تكوين ١: ١) وبالذات: "في البدء خلق الله السموات والأرض". وهذه العبارة الموجزة هي الأساس اللاهوتي الذي بُني عليه الوصف السابق. "وكانت الأرض خاوية، أو قفرًا مشوشًا"، هذه العبارة بالذات لا تجعلنا نعتقد بأن العهد القديم يُعلِّم بأن الله صَنَعَ العالمَ من مادةٍ كانت موجودةً من الأزل، وأن الله صاغها وشكَّلها وفق خطته، لأن مثل هذا التعليم لا يعرفه العهد القديم مطلقًا ولا يصرّح به النص، بل يَصِف موجَزًا: "في البدء خلق الله السموات والأرض". وعندما يتعرَّض لخلق الأرض بالذات، يصفها في شكلها المخلوق الأوَّلي: "وكانت الأرض خاوية، أو قفرًا". والصورة التي تطالعنا بعد ذلك هي على قدرٍ كبير من الأهمية، لأن الله يُظهِر قدرته على الخلق بالكلمة، والكلمة هنا تعبيرٌ عن الإرادة (أشعياء ٤٨: ١٣

– مزمور ٣٣: ٦ – مزمور ١٤٨: ٥)[١].

والخلق واضحٌ أيضًا بشكلٍ شعريٍّ جميل في مزمور ١٠٤، حيث لا تظهر الفكرة اليونانية مطلقًا، والتي تجعل الله صانعًا للعالم من المادة. ورغم أن بعض النقاد قالوا إن مزمور ١٠٤ يشبه إلى حدٍّ كبير صلوات الملك اخناتون (ق ١٤ ق. م) وإن كاتب المزمور استعان بما سجَّله كهنة مصر، إلَّا أننا إذا درسنا صلوات اخناتون والمزمور، اكتشفنا أن التشابه يسقط تمامًا إذا تذكَّرنا أن اخناتون يصلي للشمس (وليس للشمس كرمزٍ لله)، وأنها هي الله الذي يمنح العالم الحياة، بينما في مزمور ١٠٤، الشمس مجرد مخلوق من مخلوقات الله[٢].

والشعر العبراني في المزامير أو الوصف البسيط في سفر التكوين هو أعظم ما يمكن أن يصوغه الإنسان عن عقيدة الخلق، فالنصوص تؤكد أن الله هو الواهب الحياة، وأن العناصر المخلوقة مثل المياه ترتعب عندما يأمرها الله، وأن المياه التي غطَّت الأرض فاضت من صوت الله عندما أمر بالخلق (مزمور ١٠٤: ٢٦). وعلينا أن نفهم أن هذه الصورة الشعرية هي تعبير عن عدم تأليه أيٍّ من عناصر الكون. لاحِظ كيف يصوِّر سفر أيوب المياه وكأنها محبوسةٌ خلف أبوابٍ لا تملك أن تدمِّر الحياة على الأرض (أيوب ٣٨: ٨–١١)[٣] وربما هذه الصورة الشعرية هي صدى الطوفان، وما استقر في خيال الإنسان عن القوة المدمرة للمياه، وكلما تذكر الإنسان

---

(١) "وَيَدِي أَسَّسَتِ الأَرْضَ وَيَمِينِي نَشَرَتِ السَّمَاوَاتِ. أَنَا أَدْعُوهُنَّ فَيَقِفْنَ مَعًا" (أش ٤٨: ١٣) – "بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ وَبِنَسَمَةِ فَمِهِ كُلُّ جُنُودِهَا" (مز ٣٣: ٦) – "لِتُسَبِّحِ اسْمَ الرَّبِّ لأَنَّهُ أَمَرَ فَخُلِقَتْ" (مز ١٤٨: ٥).

(٢) يمكن مراجعة نصوص أخرى هامة مثل مزمور ٢٤: ٢ – أيوب ٢٦: ٥ – ١٤ – ٣٨: ٤ – ١١ مع أمثال ٨: ٢٢–٣١.

(٣) "وَمَنْ حَجَزَ الْبَحْرَ بِمَصَارِيعَ حِينَ انْدَفَقَ فَخَرَجَ مِنَ الرَّحِمِ. إِذْ جَعَلْتُ السَّحَابَ لِبَاسَهُ وَالضَّبَابَ قِمَاطَهُ. وَجَزَمْتُ عَلَيْهِ حَدِّي وَأَقَمْتُ لَهُ مَغَالِيقَ وَمَصَارِيعَ. وَقُلْتُ: إِلَى هُنَا تَأْتِي وَلاَ تَتَعَدَّى وَهُنَا تُتْحَمُ كِبْرِيَاءُ لُجَجِكَ؟".

هذه القوة، تذكر أنها في يد الله الخالق (مزمور ٨٩: ٩ – ١٠)[١].

وإذا تـذكَّرنا أن هـذه النصـوص كُتِبَـت في عـالم الوثنيـة الـذي ألَّـه النبـاتات والحيوانات والإنسان، أدركنا أن العمق اللاهوتي في العهد القديم –ككل– لا مثيل له حتى الآن.

ولكن من أهم الموضوعات في الخلق هو استحسان الله لما صنع، فقد رأى الله أن كـل شـيء جميـل جـدًا (تكـوين ١: ٤–٣١). هـذه الصـورة علـى غايـة مـن الأهمية لأنها تؤكد:

أ– أن العالم جاء بإرادة ومسرة الله.

ب– أن العالم ليس شريرًا، وأن المادة ليست هي سبب ابتعاد الإنسان عن الله.

ولكي ندرك صحة الاستنتاجين علينا أن نتذكَّر أن الخليقة نفسها، لا سيما تلك التي نسميها "غير العاقلة" (وهو تعبير أفلاطوني ومعروف في مدارس الفلسفة اليونانية)، هذه الخليقة كائنة حيَّة أمام الله تسبّحه وتعلِن عظمته (مزمور ٨٩: ٥ – ١٤٥: ١٠)[٢]، فهي ليست عاقلة ولا غير عاقلة، بل هي حيَّة تمجد الله.

والإيمـان بخلـق العـالم هـو جـزءٌ جـوهريٌّ في الإيمـان بالله (أمثـال ٣: ١٩ — ٢٠، ٨: ٢٢، ٢٠: ١٢)[٣] ويشـجع العهـد القـديم الإنسـان علـى فحـص الخليقـة

---

(١) "أَنْتَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كِبْرِيَاءِ الْبَحْرِ. عِنْدَ ارْتِفَاعِ لُجَجِهِ أَنْتَ تُسَكِّنُهَا. أَنْتَ سَحَقْتَ رَهَبَ مِثْلَ الْقَتِيلِ. بِذِرَاعِ قُوَّتِكَ بَدَّدْتَ أَعْدَاءَكَ".

(٢) "وَالسَّمَاوَاتُ تَحْمَدُ عَجَائِبَكَ يَا رَبُّ وَحَقَّكَ أَيْضًا فِي جَمَاعَةِ الْقِدِّيسِينَ" (مز ٨٩: ٥) – "يَحْمَدُكَ يَا رَبُّ كُلُّ أَعْمَالِكَ وَيُبَارِكُكَ أَتْقِيَاؤُكَ" (مز ١٤٥: ١٠).

(٣) الرَّبُّ بِالْحِكْمَةِ أَسَّسَ الأَرْضَ. أَثْبَتَ السَّمَاوَاتِ بِالْفَهْمِ. بِعِلْمِهِ انْشَقَّتِ اللُّجَجُ وَتَقْطُرُ السَّحَابُ نَدًى" (أم ٣: ١٩ – ٢٠) – "اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ. مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ مُنْذُ الْبَدْءِ مُنْذُ أَوَائِلِ الأَرْضِ" (أم ٨: ٢٢) – "اَلأُذُنُ السَّامِعَةُ وَالْعَيْنُ الْبَاصِرَةُ الرَّبُّ صَنَعَهُمَا كِلْتَيْهِمَا" (أم ٢٠: ١٢).

وعلى اكتشاف أين وكيف تسير المياه وما هو أصل الثلج (أيوب ٢٦: ٨ – ٣٨: ٢٢ – ٣٠)، وما هو مجرى الكواكب (أيوب ٣٨: ٢٢). ولأن العالم خُلِق من لا شيء، يرى الإنسان في استقرار الأرض على لا شيء أو الفراغ أو *abyss* مصدرًا للدهشة والتعجُّب من قدرة الله (مزمور ١٠٤: ٥ – ايوب ٢٦: ٧). لكن الإنسان لا ينسى أن الله خلق كل شيء بحكمته (امثال ٨: ٢٢ – ٣١)[١].

والكلام عن حكمة الله الخالقة هو في غاية الأهمية بالنسبة للعهد الجديد. لكن الكلام عن الحكمة يؤكِّد بكل وضوح قوة الله الخالقة (٢ مكابيين ٧: ٢٨) التي تعطى للإنسان الإيمان بوجود غاية في الكون وأهداف من الخلق.

ويميّز العهد القديم بكل وضوح بين الله كخالق والعالم كمخلوق. ولذلك لم يصنع الله العالم من جوهره، بل خلقه من العدم. ولا يصف لنا العهد القديم "العدم"، وكل ما هنالك الكلام عن "الغمر"، أو حسب النص الإنجليزي *abyss* والكلمة العبرانية تعني هوة عميقة مظلمة. والعدم ليس مادةً صَنَعَ منها الله العالم، وإنما هي حالة اللاحياة أو اللاوجود، وهذا الوصف بهذا الشكل يؤكِّد عدم قدرة الإنسان على تجاوز ما وراء الكلمات: "في البدء خلق الله"، ذلك أن ما وراء البدء هو فوق إدراك الإنسان.

والله كخالق هو أيضًا الذي يحفظ الكل من العدم أو الانحلال، وربما كلمة

---

(١) "اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ. مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ مُنْذُ الْبَدْءِ مُنْذُ أَوَائِلِ الأَرْضِ. إِذْ لَمْ يَكُنْ غَمْرٌ أُبْدِئْتُ. إِذْ لَمْ تَكُنْ يَنَابِيعُ كَثِيرَةُ الْمِيَاهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقَرَّرَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ التِّلاَلِ أُبْدِئْتُ. إِذْ لَمْ يَكُنْ قَدْ صَنَعَ الأَرْضَ بَعْدُ وَلاَ الْبَرَارِيَّ وَلاَ أَوَّلَ أَعْفَارِ الْمَسْكُونَةِ. لَمَّا ثَبَّتَ السَّمَاوَاتِ كُنْتُ هُنَاكَ أَنَا. لَمَّا رَسَمَ دَائِرَةً عَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ. لَمَّا أَثْبَتَ السُّحُبَ مِنْ فَوْقُ. لَمَّا تَشَدَّدَتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ. لَمَّا وَضَعَ لِلْبَحْرِ حَدَّهُ فَلاَ تَتَعَدَّى الْمِيَاهُ تُخْمَهُ لَمَّا رَسَمَ أُسُسَ الأَرْضِ. كُنْتُ عِنْدَهُ صَانِعًا وَكُنْتُ كُلَّ يَوْمٍ لَذَّتَهُ فَرِحَةً دَائِمًا قُدَّامَهُ. فَرِحَةً فِي مَسْكُونَةِ أَرْضِهِ وَلَذَّاتِي مَعَ بَنِي آدَمَ" (أم ٨: ٢٢ – ٣١).

خالق = ضابط الكل، لأن الله لا يخلق فقط، بل يحفظ أيضًا.

والخلقُ ليس حدثًا قديمًا عَبَرَ وبقى في ذاكرة الإنسان، بل هو عملٌ مستمرٌ (أشعياء ٤٠: ٢٨)[١] ولذلك يؤكد النبي في وضوح: "الذي يعطي نسمة الحياة لبني البشر ولكل الذين يسيرون على الأرض" (أشعياء ٤٢: ٥)، ولأن الله هو الذي يخلق العالم، فهو يحفظ الكائنات ويملك عليها (ايوب ٩: ٥ – ١٢)[٢].

(١) "أَمَا عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ؟ إِلَهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَعْيَا. لَيْسَ عَنْ فَهْمِهِ فَحْصٌ".

(٢) الْمُزَحْزِحُ الْجِبَالَ وَلاَ تَعْلَمُ. الَّذِي يَقْلِبُهَا فِي غَضَبِهِ. الْمُزَعْزِعُ الأَرْضَ مِنْ مَقَرِّهَا فَتَتَزَلْزَلُ أَعْمِدَتُهَا. الآمِرُ الشَّمْسَ فَلاَ تُشْرِقُ وَيَخْتِمُ عَلَى النُّجُومِ. الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَحْدَهُ وَالْمَاشِي عَلَى أَعَالِي الْبَحْرِ. صَانِعُ النَّعْشِ وَالْجَبَّارِ وَالثُّرَيَّا وَمَخَادِعِ الْجَنُوبِ. فَاعِلُ عَظَائِمَ لاَ تُفْحَصُ وَعَجَائِبَ لاَ تُعَدُّ. هُوَذَا يَمُرُّ عَلَيَّ وَلاَ أَرَاهُ وَيَجْتَازُ فَلاَ أَشْعُرُ بِهِ. إِذَا خَطَفَ فَمَنْ يَرُدُّهُ وَمَنْ يَقُولُ لَهُ: مَاذَا تَفْعَلُ؟".

الفصل الثاني

عقيدة الخلق في العهد الجديد

يؤكِّد ربنا يسوع خلق العالم بقوله: "منذ بدء الخليقة ذكرًا وأنثى خلقهما الله" (مرقس ١٠: ٥). وهكذا يحدد الرب أن أصل العالم والإنسان هو الله: "أحمدك أيها الآب رب السموات والأرض" (متى ١١: ٢٥).

ورغم أن العهد القديم حرَّم الكثير من الأطعمة، وجعل بعض العلاقات نجسةً (لاويين ١١: ١٥ تثنية ١٤: ١-٢١)، إلَّا أن الرب جاء لكي يرد كل شيء إلى أصله ويجدِّد القديم ويرد له جماله المفقود. ولذلك يصرح بكل وضوح أن كل الأطعمة طاهرة (مرقس ٧: ١٩) وأن الدَّنس ينبع من قلب الإنسان ولا يأتيه من الخارج، وهذا الدَّنس لا علاقة له بالقانون الطبيعي الذي وضعه الله (راجع بدقة مرقس ٧: ١٥). ونكاد نرى عبارة: "حسنٌ جدًا، أو جميل جدًا" في كلمات العظة على الجبل، حيث يعبِّر الرب عن جمال الزنابق الذي يفوق جمال وعظمة الملوك (لوقا ١٢: ٢٤-٢٧).

وإذا كان العهد القديم يؤكِّد عناية الله بقدرته على ضبط أمواج البحر، فإن العهد الجديد يؤكِّد عناية الله بالحديث المشهور عن العصفور الذي يُباع بثمنٍ زهيد، ولكنه "ليس منسيًّا أمام الله ولا يسقط في يد الصائد بدون إرادة الآب" (متى ١٠: ٢٩).

بل لقد لاحظ بعض مفسري العهد الجديد أن الحديث بالذات عن الغربان واختيار الغراب دون باقي الطيور، لهو تأكيدٌ على عودة الخليقة لمجدها، لأن الغراب من الطيور غير الطاهرة طبقًا للعهد القديم (لاويين ١١: ١٥ – تثنية ١٤: ١٤)، بل يأكل الغراب فراخه الصغيرة في عُشِّها (مزمور ١٤٧: ٩ – أيوب ٣٨: ٤١)، ولكن حتى هذا الطائر ليس منسيًّا أمام الله.

ويؤكد الرب أيضًا في إنجيل يوحنا أن العالمَ مخلوقٌ في نصٍّ جميل يقارِن بين مجده الأزلي ووضعه في الجسد: "المجد الذي كان لي عندك قبل تأسيس العالم (حرفيًا قبل وضع أساس العالم)" (يوحنا ١٧: ٢٤). ويؤكد أيضًا محبة الله للخليقة، وإن كان الرسول يوحنا قد اعتنى بتسجيل كلمة "العالم – Cosmos"، فهي تعني الخليقة ككل؛ الإنسان والعالم بكل ما فيه (يوحنا ٣: ١٦ – يوحنا ٤: ٩)[١]. والعالم هو مجال ظهور محبة الله التي تعلَن أولًا في ابن الله، ثم للرسل، وبعد ذلك لكل الخليقة. وسوف نرى كيف يستخدم الرسول بولس مصطلحات أخرى لنفس الفكرة (راجع يوحنا ١٥: ٩).

ولكن مما لا شك فيه أن أهم ما سجَّله إنجيل يوحنا هو عمل حكمة الله أو اللوغوس *Logos* الذي بدونه لا يوجد شيء مخلوق، وبه وحده جاءت كل الكائنات إلى الوجود (يوحنا ١: ١ – ٣). وهذا اللوغوس جاء لكي يعلِن محبة الله للخليقة. وإذا كانت الخليقة لم تدرِك هذه المحبة، رغم أن اللوغوس هو خالقها، فإن أسباب عدم الإدراك سوف تُزال تمامًا، لا سيما عندما يعلِن اللوغوس نفسه في شكل مخلوقٍ من المخلوقات، وهو الإنسان: "الكلمة صار جسدًا" (يوحنا ١:

---

(١) راجع استخدام الكلمة اليونانية Cosmos حيث تعني الأرض (مت ٤: ٨، ١٣: ٣٨)، أو السماء (لو ١١: ٥٠)، أو السماء والأرض (يو ١: ١٠، أع ١٧: ٢٤)

١٤). ويؤكد يوحنا أن اللوغوس هو الخالق (يوحنا ١: ١-٣)، ولكنه -بشكلٍ خاص- يجعل النور والحياة من عطايا اللوغوس. وبمراجعة مزمور (٣٦: ١٠)[١] نجد أن نبع الحياة والنور هو الله نفسه. ولذلك، سنرى بعد ذلك أن عمل الخالق كفادي ومخلِّص، هو أن يَهَب الحياة والنور كجزءٍ جوهريٍّ من الخلاص. وإذا استطعنا أن نتذكَّر بشكلٍ دائم أن الخلق والخلاص هما عملٌ واحد، لاستطعنا أن نتجنب مزالق الهرطقات التي تعتمد أساسًا على الفصل بين الخلق والخلاص.

ويؤكد سفر الأعمال في مجال التسبيح والشكر أن الله هو خالق السماء والأرض (أعمال ٢: ٢٤)، وكجزءٍ جوهريٍّ من كرازة الرسل، الإيمان بأن الله هو الخالق، حتى بالنسبة للوثنيين (أعمال ١٤: ١٥ - ١٧: ٢٤)، بل في مجال إجراءِ معجزةٍ، يؤكِّد الرسول بولس وبرنابا: "نحن بشرٌ مثلكم نبشرِّكم بأن ترجعوا عن عبادة الأوثان ومن الأباطيل (الفراغ أو العدم - *nothingness*)[٢] إلى الله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيهما" (أعمال ١٤: ٨ - ١٢).

ومثل إنجيل يوحنا، يؤكد سفر الأعمال أن الله لا يخفي نفسه، بل أعطى الكثير من الشهادات عن نفسه حتى للوثنيين (أعمال ١٤: ١٦)[٣]، وهذا النص قريب جدًا من (رومية ١: ١٩-٢١).

ويمكننا أن نراه بدقة أكثر على ضوء عظة الرسول بولس في أريوس باغوس (أعمال ١٧: ١٦ - ٣٤).

---

(١) يصف سفر الحكمة (٧: ١٠، ٢٦) الحكمة، بالنور والحياة. وكل أوصاف اللوغوس تتفق مع أوصاف الحكمة.

(٢) الوثنية هي باطلٌ أو فراغٌ أو عدم لأنها تتجاهل وجود الله كخالق.

(٣) الَّذِي فِي الأَجْيَالِ الْمَاضِيَةِ تَرَكَ جَمِيعَ الأُمَمِ يَسْلُكُونَ فِي طُرُقِهِمْ. مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ نَفْسَهُ بِلاَ شَاهِدٍ وَهُوَ يَفْعَلُ خَيْرًا يُعْطِينَا مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَارًا وَأَزْمِنَةً مُثْمِرَةً وَمَلأُ قُلُوبَنَا طَعَامًا وَسُرُورًا".

وتؤكِّد الرسالة إلى العبرانيين وحدة الخلق والخلاص في افتتاحيتها المشهورة التي تُعدُّ من أهم النصوص اللاهوتية في العهد الجديد. فالله يكلِّم الإنسان عن طريق الأنبياء، ولكنه يكلِّم الإنسان في العهد الجديد -بشكلٍ خاص- عن طريق الابن. وبعد ذلك يتكلم الرسول بولس عن الابن الخالق (عبرانيين ١: ٢). ولكن الابن لم يخلق العالم فقط، بل هو يحفظ *sustains* الخلائق (عب ١: ٣)، أي أنه ضابط الكل، وهنا يحدِّد الرسول شخصية الابن، ذلك الذي يحفظ كل الأشياء (راجع اشعياء ٤٦: ٤)[١]، فيقول: "بهاء مجده ورسم جوهره"، والنصُّ على ما فيه من صعوبةٍ، ليس غريبًا عن العهد القديم، فهو يعكس الكلام عن الحكمة الذي هو "نسمة قوة الله وبهاء مجد ضابط الكل وشعاع نوره الأزلي وصورته الكاملة" (سفر الحكمة ٧: ٢٥ وما بعده). وهنا نرى بكل وضوح أن شخصية الخالق واضحةٌ، فهو مثيلٌ للآب: "رسم جوهره"، أي قوام أو كيان الجوهر، فهو ليس غريبًا عن الآب لأنه حكمته.

فإذا درسنا القديس بولس، وبالذات الرسائل الأخرى، فإننا ندرس أكثر من ٦٥% من العهد الجديد. ونحن لا نعطي للقديس بولس مكانةً تمتاز عن غيره، وإنما الاهتمام الخاص به مبني على حقيقة أنه كَتَبَ أكثر من غيره، وعلى أساس أنه استخدم لغةً لاهوتيةً أوضح من اللغة التي استخدمها غيره من كُتَّاب العهد الجديد.

عند الرسول بولس الله "يدعو الاشياء الغير موجودة كأنها موجودة" (رومية ٤: ١٧)، ولكن الايمان بخالقٍ من العدم، يعني بالدرجة الأولى القدرة الفائقة على التدخل في حياة الإنسان وتحويل مسار حياته إلى الأفضل[٢] فالله لم يخلق في عصورٍ

---

(١) "وَإِلَى الشَّيْخُوخَةِ أَنَا هُوَ وَإِلَى الشَّيْبَةِ أَنَا أَحْمِلُ. قَدْ فَعَلْتُ وَأَنَا أَرْفَعُ وَأَنَا أَحْمِلُ وَأُنَجِّي".

(٢) رومية ٤: ١٧ من أهم النصوص عن القيامة وعن إيمان إبراهيم أب الآباء بقدرة الله على تحقيق مواعيده، وهكذا

سحيقةٍ انتهت، بل هو يخلق في كلِّ آنٍ، والخلق من العدم يعني خلق اسحق (رومية ٤: ١٩)، ولكنه يعني بشكل أساسي خلق حياة جديدة، وقيامتنا من الفساد والموت إلى البر (رومية ٤: ٢٥). الخلقُ إذًا ليس قضيةً فكريةً أو قصَّةً قديمةً، بل إيمانٌ مُتجدِّدٌ يحدث في الواقع، وعلينا أن نقارِن بين عبارة سفر التكوين (١: ٣)، وكيف استخدمها الرسول بولس: "الله الذي قال أن يُشرِق نورٌ من ظلمةٍ هو أشرق في قلوبنا نورَ معرفة مجد الله في وجه المسيح" (٢كو ٤: ٦)، فالله الخالق هو نفسه يكمِّل عمل الخلق ويدعِّمه بإشراق نور معرفة مجد الله الذي أعلنه يسوع المسيح. وبذلك، الخلق والخلاص، عملٌ واحد لا ثنائية فيه. هو عملُ الله الدائم في الإنسانية والعالم *cosmos*. وهنا يجب أن نرى بوضوح، أن دوام عمل الخالق لا يعني مطلقًا أن العالم يسير وفق نظامٍ مُحكَمٍ ذاتيّ، فهذه النظرة اليونانية لا وجود لها في العهد الجديد، فالله لم يخلق العالم وتركه يسير وفق القوانين التي وضعها، بل خَلَقَه ويظل يخلق بإرادته الحرة الواعية: "الذي منه وبه وله كل الأشياء. له المجد إلى الأبد" (رو ١١: ٣٦). فالطبيعة *nature* لا تسير بشكلٍ آليّ، رغم وجود الآلية، بل تسير بقدرة الله الذي يحفظ الكل. فالله كما يصفه الرسول بولس، يخلق فعلًا، ولكن فعل الخلق هنا هو الفعل اليوناني ζωογονείν المركب من فعلين، ويترجم عادة *begetting to life* وقد استخدم الرسول هذا الفعل في سياق الحديث عن الاعتراف بالإيمان: "أوصيك أمام الله الذي يلد الكل إلى الحياة (الترجمة الشائعة "يحيي الكل"، وهي ليست خطأ، وإنما لا تعني المعنى الدقيق الذي يريده الرسول) والمسيح يسوع الذي شَهِد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن" (١ تيمو ٦:

نرى أن الإيمان بالخلق هو إيمان عملي يتناول تحويل مسار حياة الإنسان، بالتالي فهي ليست قضية فكرية أو فلسفية.

١٣). وهنا، الحياة التي يلدها الله، تعني الاعتراف به كمصدر لها. ولعل الرسول يلمِّح إلى أنه في محاكمة المسيح لدى بيلاطس، لم يعترف ببيلاطس كمصدر للحياة أو صاحب سلطان مطلق، وهذا هو الاعتراف الحسن. والرسول يأخذ كلمة "والد الحياة" من (١ صم ٢: ٦)، ولولا أن الله "والد الحياة" يَهَبها، لَمَا كان من الممكن أن يتم الخلق الجديد، أي تجديد القديم برمته في المسيح يسوع (٢ كو ٥: ١٨). وهنا نرى قيمة حتمية تجديد القديم وإحيائه ورده إلى أصله وإعادة مجده المفقود إليه. هكذا، هو الخلق والخلاص كعملٍ واحد.

ولأننا أشرنا إلى الغنوسية والهرطقات الأخرى التي تفصل بين الخلق والخلاص، يمكننا أن نرى أن الفصل قائمٌ على الثنائية، وأن الثنائية تعني اليأس من القديم. وإهمال القديم هو عدم صلاح وعدم محبة. والغالب عندنا في الكنيسة هو الطابع الغنوسي لا المسيحي، لأننا لا نسعى وراء تجديد القديم، والإصلاح الكنسي عندنا هو خلق منظمات وأنظمة جديدة بديلة للقديمة، لأنه في رأينا، إصلاح القديم مستحيل، وبذلك يفقد التاريخ اتجاهه الواحد ويتشعب ويصل الإنسان في النهاية إلى اليأس حتى من الأنظمة الجديدة التي خلقناها. الحل الغنوسي يتعارض مع المسيحية، لأن الخليقة الجديدة هي ذاتها الخليقة القديمة وقد عادت إلى رونقها، ولذلك علينا أن نصحِّح إيماننا بالخلق، ونضع ثقتنا في قوة عمل الله الخالق.

يقول الرسول إن سر الفداء ليس جديدًا، بل هو مخفيٌّ أو "مكتومٌ" غيرُ معلَنٍ، وعلينا أن نلاحظ أنه مخفي وغير معلن "في الله خالق الجميع[١] بيسوع المسيح" (أفسس ٣: ١٩). ولكن الله خالق الكل أو الجميع بيسوع المسيح، يخلق

(١) حرفيًّا: خالق العالم Cosmos وتأتي كلمة "الكل"، أو "الجميع" بمعنى السموات والأرض.

أيضًا في يسوع المسيح لأن الله "على الكل وبالكل وفي الكل" (أفسس ٤: ٦) وتغيُّر حروف الجر يؤكِّد أن الخلق الجديد أو إعادة المجد المفقود في الجديد، يتم في يسوع وحده وليس سواه.

وينتقل الرسول بولس بعد ذلك إلى ذات اتجاه القديس يوحنا، وهو أن الخليقة جاءت من العدم إلى الوجود لكي تعرف الله. وهذه المعرفة تظهر أولًا بشكل طبيعي واضح من قوة وعظمة الخليقة التي تعلِن عن قوة وعظمة الصانع (رومية ١: ١٩). ومما لا شك فيه أننا نرى صدى (حكمة ١٣: ١ – ١٠)[١]، إلَّا أن الرسول عندما يستخدم هذه الصيغة، يؤكِّد أنها أدنى مراتب معرفة الله. فهي معرفة توصِّل الإنسان إلى إدراك قوى الله وعظمته فقط، وهذه المعرفة لا توصِّل الإنسان إلى معرفة شيء عن الله، عن شخصه.

ولهذا السبب، عندما يعود الرسول إلى نفس الموضوع في (رومية ٨: ٢٠–٢٣) عن علاقة الخليقة بالله، يتصوَّر العالم مثل المرأة التي تلد، فهو في مخاض وألم وتعب إلى أن يولَد في العالم أبناء الله المعتوقين من الفساد، عند ذلك يتحرر العالم من المخاض (ربما كان الرسول يفكِّر في الكوارث والآلام والمجاعات التي شاهدها في

(١) وما من شك أن جميع الذين يجهلون الله هم حمقي من طبعهم. ولم يقدروا أن يعرفوا الكائن من الروائع المنظورة التي صنعها. فظنوا أن النار أو الهواء أو الريح العاصفة أو مدار النجوم أو السيول المتدفقة أو الكواكب النيرة في السماء ظنوا هذه آلهة تسيطر علي العالم. وهم عندما ظنوا أن هذه الآلهة، فلأنهم فُتِنوا بجمالها غير عالمين أن لها سيدًا أعظم منها لأنه هو الذي خلقها وهو مصدر كل ما فيها من الجمال. أو عندما دُهِشوا من قوتها ومحاسنها كان عليهم أن يفهموا بها كم صانعها أعظم منها. فبعظمة المخلوقات وجمالها تُقاس عظمة الخالق. ولكنهم لا يلامون علي ذلك كل اللوم، لأنهم ربما أرادوا حقا أن يطلبوا الله فتاهوا. أو ربما فتنتهم أعمال الرب فأمعنوا النظر إليها حتى اقتنعوا أن ما يرونه هو من الروعة بحيث لا يمكن إلا أن يكون هو الآلهة. مع ذلك فلا عذر لهم. لأنهم إن كانوا من العلم علي قدرٍ كافٍ لمعرفة طبيعة الكون، فكيف قصروا عن معرفة رب الكون ذاته؟ ولكن أشقي الناس جميعا هم الذين جعلوا رجاءهم في الأشياء الميتة، والذين سمُّوا ما صنعته أيدي البشر آلهة وما هي إلا مصنوعات فنية من الذهب والفضة تشبه الحيوان، أو من الحجر التافه الذي نحتته يدٌ في قديم العصور".

خدمته)، كل هذه الظواهر سوف تقف عندما يتحرر الإنسان من الفساد والشر، ويصبح سيد الخليقة الجديدة مرةً أخرى. وبالطبع، الانتقال إلى معرفة سِر المسيح وهدف الخلق في المسيح، هو أعلى درجات المعرفة، ويخصِّص الرسول لهذا النوع من معرفة الله الجانب الأكبر، بل الجانب الأهم.

وعندما يُعرَّف الرسول بولس دور الابن في الخلق، يقول: "لَكِنْ لَنَا إِلَهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ وَنَحْنُ بِهِ" (١ كو ٨: ٦).

وعندما يصرح الرسول بهذا، فهو يتحدث عن الوثنية وعن الشياطين التي ليست آلهة، ولكن المسيحي الذي ترك الوثنية، عليه أن يتركها حقًّا عندما يبتعد عنها بالفعل، عندما يختبر أن الله هو مصدر الحياة: "الذي منه الجميع"، ولكنه لا يُعطى إلَّا بوسيلةٍ واحدة: "الذي به الجميع"، وهذه الوسيلة هي يسوع المسيح. غير أن هذا التفسير البسيط لا يشرح عمق معنى الإنجيل، لأن الرسول يريد أن يرى في الكنيسة المؤمنين الذي لا يثقون بقوة الشياطين وبقدرتها على إيذاء الإنسان. فالذي من الله، لا يحسب حساب أي قوة أخرى. وهنا، عقيدة الخلق، كما هي في باقي أجزاء العهد الجديد، لا تبدو إيمانًا بعالمٍ يحكمه القانون الطبيعي، بل بعالمٍ خاضعٍ لإرادة الله.

وعندما يقول بولس إن "المسيح هو الرب" الذي به خُلِقَ الكل، فهو لا يعلِن أُلوهية المسيح فقط (رو ١: ٣)، وإنما يعلِن عمل المسيح المخلِّص، فهو يخلق ويصوِّر كل الأشياء، ولذلك هو قادر على أن يستردها. لقد خُلِقَ به الكل، وبالتالي يستحيل أن يتجدَّد الكل بدونه. والرسول بولس يعود إلى التعليم الواضح الصريح

عن حكمة الله الخالقة التي تشارك الله عرشه الإلهي (حكمة ٩: ٤)، والحكمة التي تقود الخليقة وتحكم العالم (حكمة ٨: ١). ولذلك، عندما يواجه الرسول حكمة اليونانيين، أي الفلسفة (١كو ١: ٢٥)، يصفها بأنها عاجزة أن تُظهِر شخص الله، ولذلك جاء الحكمة، أي المسيح الذي هو أيضًا قوة الله، وأظهر الحكمة الحقة في خلاص البشر (١كو ١: ٢٤-٣٠).

ولذلك يرى الرسول أن الخلق في المسيحية مختلفٌ عن خرافات الوثنية: "ليس وثن في العالم" (١كو ٨: ٤)، وعن اليهودية: "الطعام لا يقدِّمنا إلى الله. لأننا إن أكلنا لا نزيد وإن لم نأكل لا ننقص" (١كو ٨: ٨). وهكذا تبدأ مقارنة المسيحية بغيرها من الديانات بعقيدة الخلق. لأن الله الخالق هو الذي يهب الحياة، وبالتالي علاقتنا به لن تتم عن طريق المخلوقات (الأوثان)، أو معاملة المخلوقات بشكلٍ معين (الامتناع عن الأطعمة التي تُوصَف بأنها نجسة، كما في اليهودية) وإنما الذي يقدمنا إلى الله هو خطته المحكمة التي جعل فيها يسوع الذي به "خلق الكل" هو "مخلِّص الكل". وبشكلٍ شعريٍّ جميل، يربط الرسول بين الخلق والفداء على هذا النحو في نص يعتَقِد كل علماء العهد الجديد أنه ترتيلة قديمة:

(أ)	(ب)
الذي هو صورة الله غير المنظورة	الذي هو البداءة
بِكر كل خليقة	بشكر من الأموات
فإنه فيه	لكي يكون متقدِّمًا
خُلِقَ الكل ما في السموات	في كل شيء
وما على الأرض	الذي فيه سُرَّ أن

الكل به	يحل كل الملء
وله	وأن يصالح به الكل
قد خُلِق	لنفسه
الذي هو قبل كل شيء	عاملًا الصلح
وفيه يقوم الكل	بدم صليبه
وهو رأس الجسد	بواسطته
الكنيسة	(يصالح كل الذي على الأرض وكل الذي في السموات)

(كولوسي ١: ١٥-٢٠)

وهنا نرى أن المسيح كابنٍ لله الكائن قبل كل الدهور قد أعلَنَ للخليقة صورة الله "غير المنظور، أي الذي يحمل في ذاته كلَّ خصائص وصفات الله، وبالتالي فهو البِكر[١]. ولما خَلَقَ كلَّ الاشياء كان يضع خطته على أساس أنه سوف يأتي بنفسه ليكون بشكلٍ ظاهرٍ البداءةَ، فصار رأسَ الجسد أي الكنيسة، وجعل مصالحة الأرض والسماء بموته ممكنةً، ولما صالح الأرض والسماء بموته جعل خدمة المصالحة في الكنيسة.

وهنا نرى أن الكتاب المقدس كله من التكوين إلى الرؤيا قد لُخِّص في هذا النص البديع الذي يحتاج إلى دراسةٍ مطوَّلة. ولكن الخلق يصل في النهاية إلى الخلاص، لأنهما عملٌ واحدٌ، وما فعله الله في التكوين يستمر في الكنيسة لكي

(١) الجدل منذ الأريوسية حول معنى البِكر انحصر عند الآباء بأن البِكر هو الوارث، والبِكر هو المتقدم أو الرأس، وبالتالي لا تحمل هذه العبارة أية إشارة إلى أن المسيح مخلوق أو أول المخلوقات التي خلقها الله، لأن كلمة البِكر وصورة الله غير المنظور تعني بكل تأكيد أن المسيح إلهٌ مثل الآب، وإلَّا تعذَّر عليه أن يكون صورته خالقًا.

تظهر خطة الله في إعداد العالم لكي يقبله، ويكفي أن نرى معنى كلمة الرسول: "وفيه يقوم الكل"، ولعلنا إذا وضعنا النص بالإنجليزية ظهر معناه: *In Him everything has its stability*.

وهذا يعني أن الحياة التي خُلِقت من خلال البِكر صورة الله، تحصل على مسارها وهدفها في الابن الذي أعاد الخليقة جمالها[١].

الأرض وملؤها:

يستخدم الرسول تعبير المزمور (٥٠: ٢) "للرب الأرض وملؤها *Fullness*" لمحاربة تيار التهوُّد الذي كاد يخنق حياة الكنيسة الروحية، واشترك معه التيار المضاد له تمامًا، وهو تيار الوثنية في تمزيق معنى الرسالة.

لكن ما معنى الأكل من اللحوم التي ذُبِحَت للآلهة، في إطار الإيمان بالله الخالق؟ الحياةُ من الله، وهي من الله سواء في الخطيئة أم القداسة، لأن الحياةَ ليس لها مصدرٌ آخر تنبع منه سوى الله: "الذي منه الكل". ولأن الحياة لها مصدرٌ واحد هو الخالق والفادي، إذن لا وثنيةَ ولا يهودية. كلاهما بلا معنى، طالما أن الله جاء لكي يجدِّد الخليقة. ولذلك، يمكن للمسيحي إذا دُعيَ إلى زيارة وثنيٍّ وجلس في الوليمة، أن يأكل مِن اللحوم، سواء ذُبِحَت للأصنام أم لم تُذبَح. على المسيحي أن لا يشترك في طقس الذبح للأصنام، وبالطبع كانت اليهودية ترى أن هذا اللحم نجسٌ، وأن مَن يأكل منه يتنجس، ولكن الرسول بولس لم يقبل هذه النظرة بالمرة، وكان القول

---

(١) سوف نرى فيما بعد كيف اعتمد القديس أثناسيوس على هذا النصّ بالذات للإجابة على السؤال الهام: لماذا تجسَّد الابن، ولم يتجسد الآب أو الروح القدس؟ وكيف خصص الثمانية فصول من كتاب تجسد الكلمة للرد على هذا السؤال الهام.

الأخير هو العقيدة السليمة والإدراك الدقيق لمعنى خَلق العالم. **بالطبع هذا الإدراك لازمٌ لنا لكي نتحرر مِن كلِّ ما تبقى من النظرة اليهودية، لا سيما ما يتعلق بالطقوس وطريقة ممارستها الخاطئة، بالشكل الذي يوحي بأن نعمة الله تعتمد على ما نقوم به من طقوس وليس على ما يعطيه الله كخالق** (راجع ١ كو ٨: ٤-١٣)، لأن الله في النهاية، لا يرى الخليقة التي رتَّب خَلقَها وقداستها، لا يراها اللهُ نجسةً، بل لا يوجد شيءٌ في حد ذاته نجسًا (رومية ١٤: ١٤)، وبالتالي كلُّ مَن لا يؤمن بذلك فهو ضعيفٌ جدًا لأنه لا يدرِك أن "ملكوت الله ليس أكلًا وشربًا بل هو برٌ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس" (رومية ١٤: ١٧). وبالتالي لا يقوم الملكوت على نظرة الإنسان الطبيعية وتقديره الشخصي لِمَا هو نجس وغير نجس، فالعلاقة ليست علاقة طبيعية *Natural* بل هي علاقة شخصية مع الله قائمة على البر والسلام والفرح في الروح القدس (الشخص الذي يحل فينا).

وقد عالج الرسول بعد ذلك نظرة الغنوسية التي حرَّمت الزواج وتناول أطعمة قد خلقها الله لتكون طعامًا للإنسان. ويعود الرسول إلى الخلق والخلاص كعملٍ واحدٍ ليقول: "كل ما خلقه الله فهو حسنٌ أو صالحٌ أو جميلٌ"، لكن علينا أن نعرف كيف نتقبل هذه الخليقة، لا سيما الزواج والطعام. علينا أن نشكر الله، فإذا شكرنا الله أدركنا من الصلاة أننا نشكر الله، وأدركنا من كلمة الله الخالقة أنه أراد أن يَهَبنا أن نتمتع بهذه الخليقة الجيدة (راجع بدقة ١تيمو ٤: ٤ وما بعده). وبالتالي علينا أن نفهم أن النُّسك القائم على الإيمان بأن الخليقة نجسة أو دنسة أو شريرة .. الخ هو نُسكٌ كاذبٌ لا معنى له، لأنه يجهل الله الخالق، وبالتالي يجهل الله المخلِّص (راجع بدقة ١ تيمو ٢: ١٥ - ٤: ٣ - ٥: ١٤ - تيطس ٢: ٤). الطعام

بالذات، كخليقة الله، صالحٌ وطاهرٌ، وبالتالي الامتناع عنه لأنه نجس (١ تيمو ٤: ٤ – ٥: ٢٣ – تيطس ١: ١٥) لا يفيد الإنسان مطلقًا، بل يضره لأنه يجعله عاجزًا عن إدراك معنى عطية الله كخالق.

الحرية الروحية هي إدراكٌ سليم لعقيدة الخلق. فكل ما في العالم هو مِن الله، ويسير حسب قصد ضابط الكل. ولذلك، كل المخلوقات وكل القوى –مهما كانت– لا يمكنها أن تسيء أو تضر علاقتنا بالخالق في يسوع المسيح، لأن هذه العلاقة تسير حسب إرادة الله وحسب قصده، لا حسبَ قوةٍ من قوى الطبيعة. ولذلك، يستخدم الرسول هذه الكلمات: "فإنني واثق أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا قوات ولا أي شيء حاضر ولا أي شيء من الأشياء الآتية ولا قوات ولا علو ولا ارتفاع ولا عمق ولا أي مخلوق قادر على أن يفصلنا من محبة الله (لنا) في المسيح يسوع ربنا" (رومية ٨: ٣٨).

وهكذا، في مجال الحديث عن القوى التي يمكن أن تقف في طريق علاقة الله بالإنسان، يضع الرسول بولس أولًا الموت ثم الحياة، وطبعًا كِلا الكلمتين تعني كل القوات في الطبيعة *Biological Forces* وطبعًا لا يحمل كلام الرسول أيَّ احتقارٍ للحياة أو كراهية للموت، وإنما يؤكِّد على أن كلاهما عاجزٌ عن أن يُوقِف محبة الله لنا. لأن هذه المحبة هي القوة الأصلية التي خَلَقَت كلَّ ما في العالم، ولا يمكن أن توقفها أو تصدها كل القوات التي يذكرها الرسول الواحدة تلو الأخرى، ولكن هنا أيضًا نرى أن النظرة النُّسكية الغنوسية خاطئة جدًا لأنها تعجز عن أن تصل إلى إدراك معنى علاقة الخالق بالإنسان الكائن في هذا العالم المادي، لأنه يتطور وينضج روحيًّا هنا وأثناء حياته على الأرض، وبالتالي تعجز كل قوات الحياة الحاضرة والآتية

أيضًا عن أن تنال من علاقة الإنسان بالله، لا الملائكة ولا الشياطين، لأن هذه العلاقة ليست قائمة على ما يمكن أن يصل إليه الإنسان، بل على ما مَنَحَه الله نفسه للإنسان. والرسول بولس لا يدَّعي أن المسيحية تحصِّن الإنسان من الألم والتعب، ولكنها في وسط المتاعب نفسها، تبقى العلاقة قويةً لا تنال المشاكل منها، بما فيها الموت.

ولذلك، تظل هذه العلاقة فوق كل القوانين، ولا تخضع إلَّا لمعنى العطية أو المنحة الإلهية. وعندما يتذكَّر الرسول بولس هذه الحقيقة، يعود لكي يذكِّر الإنسان بأن الدينونة قائمة على أساس أن الإنسانية هي هيكل الله (١كو ٣: ١٤-١٦). ولأن الإنسانية صارت هيكل الله، أصبح الحديثُ عن العالم وعن الخليقة أمرًا ثانويًّا، بل أصبح الصيت والألقاب .. الخ. بلا معنى. لماذا؟ "إِذًا لاَ يَفْتَخِرَنَّ أَحَدٌ بِالنَّاسِ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَكُمْ: أَبُولُسُ أَمْ أَبُلُّوسُ أَمْ صَفَا أَمِ الْعَالَمُ أَمِ الْحَيَاةُ أَمِ الْمَوْتُ أَمِ الأَشْيَاءُ الْحَاضِرَةُ أَمِ الْمُسْتَقْبَلَةُ. كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلِلْمَسِيحِ وَالْمَسِيحُ لِلَّهِ" (١ كو ٣: ٢١-٢٣). كلُّ شيءٍ لكم، لا يفصلكم عن العالم أيُّ شيء، ولا عن الموت ولا عن الحياة، سوى الاختيار. المسيحُ هو مَلِكُ العالم وكلَّ ما فيه، قد حصل عليه وفق خطة الله (المسيح لله). ولذلك، مَن هو للمسيح، ينال كلَّ شيء. وبالطبع، إن مَن يدرِك هذه الحقيقة لا يمكنه أن يعود إلى اليهودية مطلقًا بكل الفواصل والموانع التي تجعل الإنسان غريبًا عن الخليقة.

ويطوِّر الرسول بولس اتجاهه الروحي على أساس العقيدة، فهو نادرًا، بل لم يحاول أن يقترب من أية مشكلة دون أن يضعها في إطارها اللاهوتي، ولذلك عندما يصف الرسول بولس اليهودية والوثنية، وكلاهما مختلف تمامًا، يقول عن الذين عاشوا

في الوثنية وفق الناموس القديم إنهم كانوا تحت "أركان العالم" (غلا ٤: ٣-٩ كولوسي ٣: ٨-٢٠) و"أركان العالم" تُترجم بلغة اليوم *Elements of the world* ويقول الرسول: "كنا مُستَعبَدين لأركان العالم" (غلا ٤: ٣)، هذه الأركان هي القوة الظاهرة في الكون مثل الماء والنار والهواء، والتي خصَّص الإنسانُ لها أوقاتًا وشهورًا لعبادتها، وهي مثل العبادة اليهودية الفقيرة التي تفتقر إلى الهدف الواضح. وطبعًا، الهدف الواضح هو أن الإنسان سيد الكون والخليقة، فلماذا يُعامِل الخليقة على أساس أنها تملك قوةً تُدنِّسُه أو تُفسد علاقته بالله؟ (غلا ٤: ٩).

وهنا، السبت والشهور والأهلّة (طلوع الهلال الجديد)، كلُّ هذه الأمور لا تملك أن تدعِّم علاقة الإنسان بالله، لأن ليس لديها قوة يمكن أن تعطيها للإنسان، وليس لديها قوة تستطيع أن تؤثِّر على الإنسان أو تُفسد علاقة الله بالإنسان. الخليقةُ هنا محايدةٌ تمامًا، واستعمال الإنسان لها هو الذي يحوِّلها إلى خادم للإنسان أو سيِّدًا عليه. وقد عبَّر الرسول في رسالته إلى كولوسي عن خوفه من أن يعود اليهود الذين آمنوا بالمسيح إلى اليهودية، ولذلك يحذِّر من العودة للعبودية مرةً ثانيةً لـ"أركان العالم"، لأن المسيحي مات مع المسيح في المعمودية: "متُّم مع المسيح عن أركان العالم" (كولوسي ٢: ١٢ - ٢: ١٠)، وبالتالي إذا كان الإنسان قد اكتشف أن حياته يمكن أن تتجه لله حسب قصد الله في المسيح، إذن، السؤال الهام: " فَلِمَاذَا كَأَنَّكُمْ عَائِشُونَ فِي الْعَالَمِ، تُفْرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَائِضُ: لاَ تَمَسَّ، وَلاَ تَذُقْ، وَلاَ تَجُسَّ؟[١] التي هي جميعها سوف تنتهي بمجرد استعمالها" (كولوسي ٢: ٢٠-٢٢).

إذا كان المسيحي قد فَهِمَ من اختباره لموت المسيح أن علاقته بالله قائمة

---

(١) الأفعال الثلاثة: "لا تمس" التحذير من النجاسة عن طريق لمس الأشياء. "لا تَذُق" التحذير من الأطعمة. "لا تجس" التحذير من التعامل. وهذه الأفعال الثلاثة هي قوام اليهودية.

على عمل المسيح وحده، إذًا ما معنى الفرائض التي حدَّدها الناموس؟ إنها بلا قيمة بالمرة لأن كل الممنوعات والمحرمات في العهد القديم تفقد أهميتها فلا تقود الإنسان بعد إلى أي شيء، وهي في حد ذاتها مثل الأطعمة وغيرها تفقد قوتها ومعناها عندما ينتهي الإنسان من استعمالها. وإذا كانت كل أركان العالم خاضعة للمسيح، إذًا من أين جاءت قوتها؟ وكيف تستطيع أن تقدم فائدةً أو معونةً للإنسان؟ ومَن مات مع المسيح في المعمودية يعرف أن حياته القديمة التي اعتمدت على أركان العالم[١] قد انتهت، ولم يَعُد لها أي قوة. وأمَّا الحياة الجديدة، فهي تأتي مباشرةً من المسيح الذي أقام المسيحي في المعمودية. وطبعًا تقف المعمودية شامخةً أمام العبادة القديمة التي كان لها شكل التقوى، ولكنها الآن بعد مجيء ينبوع الحياة صارت "نافلة" (كولوسي ٢: ٢٣). لقد فرض الناموس على الإنسان نظرةً معيَّنةً للخليقة، سببُّها فساد قلب الإنسان ولعنة الموت، أمَّا الآن وقد رُفِعَت الخطية وأزال المسيحُ اللعنةَ بالصليب (غلا ٣: ١٣)، فكل الحواجز التي كانت تفصل بين الإنسان والخليقة قد زالت، لأن المسيح أعاد الإنسان إلى رتبته المفقودة وردَّه إلى مجده القديم، وبهذا العمل وحده سقطت كل الوصايا والفرائض الخاصة بالتطهيرات والاغتسالات والنجاسة، وهكذا عادت للإنسان نظرته السليمة للخليقة: "ما طهَّره الله لا تدنِّسه أنت" (أعمال ١٠: ١٥).

+ + +

(١) اعتمادًا على دراسة العالِم الألماني N. Kehl والتي حلل فيها استخدام تعبير "أركان العالم" عند بولس وآباء الكنيسة، لا سيما ذهبي الفم، مع مراجعة تفاسير الآباء لهذا التعبير عند العالم الألماني H. M. Schemke.